ت. الإرسال: 2024/02/01	ت. المراجعة: 20– 02–2024	ت. القبول: 09–03–2024

التفاعل العربي الأمازيغي خلال الفتوحات في الغرب الإسلامي

رصد و تحليل

Arab- Amazigh interaction during the conquests in the Islamic West Monitoring and analysis

خيواني فاتح، طالب دكتوراه، حضارة إسلامية ، جامعة باتنة 1

fatih.khiouani@univ-batna.dz

دة. هدار فضيلة ، حضارة إسلامية ،جامعة باتنة1.

Fadhila.heddar@ univ-batna.dz

الملخص:

يعتبر الفتح الإسلامي من أهم الوسائل التي اعتمدها المسلمون منذ نشوء دولتهم، لنشر الإسلام والتعريف به بين مختلف الأجناس وفي مختلف بقاع العالم، حيث يعد الغرب الإسلامي من المناطق التي دخلها الإسلام من خلال هذا النهج - الفتح- والذي ابتدأ منذ النصف الثاني للقرن الأول الهجري، وقد تم هذا الفتح بنجاح وذلك بعد أن مر بعدة مراحل، كانت ثمرته دخول منطقة الغرب الإسلامي تحت راية الإسلام. لقد سجلت مراحل الفتح لمنطقة غرب الدولة الإسلامية أحداثا مهمة رصدها التاريخ في مختلف مصادره، منها كيفية تعامل العرقين مع بعض الفاتحين (الأمازيغ – المسلمون)، والأسرار التي كانت تحوط دقائق العلاقة بين الفاتحين وشعوب الأمازيغ .

الكلمات المفتاحية: الفتح الإسلامي، الغرب الإسلامي، العرب، الأمازيغ، قادة الفتح

Abstract:

Islamic conquest is considered one of the most important means that Muslims have adopted since the establishment of their state, to spread Islam and introduce it among different races and in different parts of the world. The Islamic West is one of the regions that Islam entered through this approach - conquest - which began in the second half of the first century AH. This conquest was completed successfully after going through several stages, resulting in the Islamic West region coming under the banner of Islam. The stages of the conquest of the western region of the Islamic State recorded important events that were recorded in history in its various sources, including how the two races dealt with some of the conquerors (the Berbers - the Muslims), and the secrets that surrounded the nuances of the relationship between the conquerors and the Amazigh people

Key words: Islamic conquest, the Islamic West, Arabs, Amazigh, leaders of the conquest

_____E-mail de correspondence: fkhiouani@gmail.com_____

مقدمة:

تعتبر هجرة الرسول صلى الله عليه وسلم إلى المدينة المنورة معلما تاريخيا فاصلا ومميزا للدعوة الإسلامية، بالنظر للنقلة النوعية في جوانب كثيرة اجتماعية، حضارية، ثقافية، وخاصة الأخلاقية منها فالنبي صلى الله عليه وسلم بعث متمما لمكارم الأخلاق هاديا بإذن المولى عز وجل عقول البشرية و أفئدتهم لما فيه صلاح الدارين، فما كان له إلا أن قام- عليه الصلاة والسلام- بتأثيث الدولة الجديدة بإرساء قواعد المدنية وتنظيم العلاقات الاجتماعية التي تنبني على ردم الفجوات العرقية والطائفية التي خلفتها براثن الشرك والوثنية في أوصار القبائل العربية حديثة العهد بالإسلام، ولخلق نواة اجتماعية تمثل خير أمة أخرجت للناس فأول الغيث أن قام – صلوات ربي عليه وعلى اله أجمعين – هو بناء المسجد النبوي، من أجل إرساء قانون أو دستور للدولة الجديدة؛ يحدد فيها بنود وقوانين وشروط المواطنة وما يجب على كل فرد في إطار الدولة الفتية ومن ثم كان الهدف الموالي نشر الدين الإسلامي وتعاليمه ومبادئه إلى أصقاع العالم .

فقد أولى الرسول صلى الله عليه وسلم وهو قائد الدولة ونبي الله للأمة اهتماما بالغا لتنشئة مجتمع المدينة أو (ما بعد الهجرة) على أسس وأصول الدين الإسلامي، لتكون الفترة المدنية هي فترة الاستثمار في الرجال الذين وقفوا معه وساندوه، والذين كان صلى الله عليه وسلم قد أعدهم وكونهم في الفترة المكية.

بعد بناء الرعيل الأول من المسلمين وجه الرسول صلى الله عليه وسلم اهتمامه؛ إلى طرق وأساليب نشر الدين الإسلامي بين مختلف الأجناس والأمم والبقاع، تعريفا وإقناعا به تارة، أو إخضاعا لهم تارة أخرى.

لقد شكل الفتح الإسلامي الوسيلة والغاية المثلى التي اتبعها الرسول صلى الله عليه وسلم وصحابته في سبيل نشرهم للدعوة الإسلامية ومبادئها وحقيقتها التي جاء يدعوا الناس إليه بأمر ربه، فشارك صلى الله عليه وسلم بنفسه أطوار الفتح وما سبقه –كما يعرف في التاريخ- من الغزوات.

وبمرور الوقت؛ ازداد توسع الدولة الإسلامية، وانتشرت حركة الفتح حتى وصلت لشمال إفريقيا التي تمثل الحدود الغربية للعالم الإسلامي، ليشهد تاريخ الإسلام انضمام عنصر جديد إلى تركيبته سيكون له باع في نشر الإسلام في الأندلس؛ وهو عنصر الأمازيغ.

فكيف كان التواصل خلال هذه الفترة بين الفاتحين والأمازيغ والعكس؟ كيف عامل الفاتحون أهل المغرب؟ ما درجة تقبلهم لما دعوا إليه؟ ثم ما هي المكانة التي صنعها قادة الفتح لأنفسهم بين الأمازيغ، وما مظاهر ذلك؟

وسعيا منا لحل هذه الإشكالات ارتأينا إدراج المنهج الوصفي مع استخدام آليات النقد والتحليل ما دعت الحاجة لذلك .

تمهيد :

تعتبر إفريقية إحدى أبرز مناطق العبور في العصور الوسطى باعتبارها تتوسط البحر المتوسط والذي كان يمثل مجالا خصبا لتلاقح الحضارات والثقافات في فترات السلم والحرب التي سجلتها المنطقة بأسرها كما أنها تمثل أيضا مسرحا تعاقبت على خشبته أعتى دول الفترة الوسيطة ونقسط بذلك الإمبراطورية الرومانية والوندال والفينيقيين ....

وفي خضم ذلك التفاعل الحثيث لاشك أن للبربر على غرار بقية الأمم والشعوب الأخرى لهم عاداتهم وصفاتهم التي تخول لهم تلقي الرسالة الإسلامية المتممة لمكارم الأخلاق ؛ فقد قال عز وجل:" وإنك لعلى خلق عظيم" [1] كما ذكر صاحب" المرآة" "حمدان خوجة " أن رجال البربر يرتدون قماشا صوفيا .وألبستهم على شكل كيس مثقوب في الوسط لإخراج الرأس وبها ثقبان آخران على الجنبين لإخراج اليدين ،عرضه حوالي ذراع ويهبط إلى متصف الساق؛ ويبدوا أن هذا الأخير يشير إلى القشابية والقماش من الصوف الأسود، وهو من صنع النساء ، وكذلك الصنف الأول من اللباس من صنع النساء ولا نعتقد أن صنعة الحياكة والدباغة كانت لها علاقة برجال البربر؛ كما أشار إلى لباس آخر هو البرنس يرتديه الأغنياء ولكن الغريب في الأمر قوله أن الرجل يكتفي منه ببرنس واحد طيلة حياته إلى أن يتساقط إربا !.

ذكر صاحب المرآة أن النساء أيضا لهن لباس يسمى حائكا يصنع من قماش ذي لون أزرق عرضها حوالي أربع أصابع ويستورد هذا الصوف الملون من الجزائر والثريات من النساء يغطين رؤوسهن بقطعة من الكتان أو منديل قطني ،أما الأطفال فعراة تماما(خوجة و الزبيري، 2005: 23-24)

ما يعني ذلك أن هناك جانبا معتبرا من التحضر في الفترة الوسيطة كان يتمتع بها نساء ورجال البربر؛ ففي النهاية كانوا جزأ لا يتجزأ من التفاعل الحصل في حواضر الحوض المتوسط، كيف لا وقد كان احتكاكهم مع الروم البيزنطيين وتفاعلوا معهم أيضا في فترات السلم .—ولسنا هنا بصدد تمجيد الوجود الروماني بشمال إفريقيا إذ نذكر ذلك –

[1] . سورة القلم : الآية 4

استغل زعماء الأمازيغ إمكاناتهم وملكتهم أيما استغلال –فكما يذكر المؤرخون المنصفون – فقد كانوا يتصفون بمجموعة من الصفات العسكرية اللائقة لطبيعة البلاد، فهم مطبوعون على الشجاعة والفروسية ويحتقرون الموت ولا يبالون به متى جاء، وكانوا يمتازون بسرعة الحركة في القتال، فيتقدمون بخطى ثابتة، وجرأة نادرة، ويضربون بسرعة خاطفة،- ويتراجعون- بسرعة تفوق مهارة تقدمهم فيحمون مؤخر الجيش أثناء تراجعهم، ثم يشنون هجوما صاعقا على العدو كلما وجدوا منه غفلة، أو ضنكا أو تراخيا، بسبب معرفتهم لطبيعة البلاد وقدرتهم على استخدام الصحراء ملجأ آمنا لا يستطيع العدو أن ينافسهم فيه أو يزاحمهم عليه.(الجزائري، 1971:ص 46).

لكن استغلالهم لقدرتهم الحربية كان له أثره الوخيم – أحينا – على عقبة ومن معه كما سنرى في تتمة هذا المقال والتي جاءت كردة فعل لما تعرض له كسيلة من طرف عقبة من سوء معاملة وإذلال أمام قومه.

1. إرهاصات فتح شمال إفريقيا إيذان ببداية التفاعل 22هـ /642 م

بعد إتمام العرب فتح بلاد شبه الجزيرة العربية وطهروها من بقايا نفوذ دولتي الفرس والروم البيزنطيين؛ رأوا بنشر الإسلام غرب الدولة الإسلامية على امتداد شواطئ البحر المتوسط الجنوبية (بوعزيز، 2009:ص 84).

اتسع مدلول لفظ إفريقية على عهد البيزنطيين فشمل كل ما دخل تحت نفوذهم من هذه القارة من برقة إلى طنجة؛ وبهذا المعنى استعمله العرب أول الأمر ثم أخذ لفظ إفريقية في الانحصار شيئا فشيئا ليظهر لفظ المغرب – بديلا منطقيا لها لمقابلتها بالمشرق الإسلامي – فاقتصرت أمم إفريقية على ما يلي مصر غربا إلى بجاية من مقاطعة قسنطينة – الجزائر– ثم يلي ذلك المغرب حتى المحيط وربما بعض من أجزاء الأندلس، وأقتصر فيه الآخرون على المغرب الإسلامي، وهو الإقليم الذي يلي مصر غربا حتى المحيط، وقد تم تقسيمه إلى ولايات كبرقة وطرابلس وإفريقية – تونس – والمغرب الأوسط – الجزائر والمغرب الأقصى والسوس (الجيلالي، 1965: ص 160).

وقد أورد الصلابي في كتابه "الفتح الإسلامي في الشمال الإفريقي" أن مفهوم إفريقية الخاص يعني الأجزاء الشرقية من المغرب التي تعادل ولاية إفريقية الرومانية الأصلية، أي البلاد التونسية الحالية مع بعض الأجزاء الغربية لولاية طرابلس (ومنها المدينة) والتخوم الشرقية لبلاد الجزائر إلى (بجاية) في ولاية (قسنطينة)، وعلى ذلك فإقليم إفريقية هو أول أقاليم المغرب (الصلابي، 2008: ص 9) ويقصد ببلاد المغرب كل

الأقاليم الواقعة غرب مصر والتي تشمل القارة الإفريقية وتتضمن حاليا البلاد الليبية بولاياتها الثلاث (برقة، طرابلس، وفزان)، وتونس، والجزائر، بصحرائها المترامية إلى تخوم السودان. وأخيرا فإن المغرب الذي كان يعرف إلى عهد قريب باسم مراكش نسبة إلى عاصمتها الجنوبية، ويمتد طبيعيا نحو الجنوب إلى تخوم السنغال والنيجر، والمغرب عند الكتاب الأوائل يبدأ مما يلي إفريقية غربا إلى سواحل المحيط؛ ويعني ذلك أن المغرب غير إفريقية (الصلابي، 2008: 11).

تورد الروايات أن مشروع الفتح الإسلامي للشمال الإفريقي؛ كان قد تم طرحه منذ عهد الخليفة الثاني لرسول الله صلى الله عليه وسلم في إمرة المسلمين، سيدنا عمر بن الخطاب الفاروق رضي الله عنه بعد أن تم فتح مصر التي اعتبرت قاعدة الفتح للمناطق الغربية لها منها المغرب العربي.

استغرق فتح هذه المنطقة مدة طويلة مقارنة بفتح مناطق أخرى، وقد يفسر ذلك بعدة تفسيرات أهمها: صمود ومقاومة وحتى رفض أهل المنطقة لهذا التغير في عقائدهم ونمط عيشهم، بينما يكون في رأينا تداخل واجتماع عدد من العوامل مع بعضها ساهمت في ذلك كالبعد الجغرافي واختلاف التضاريس والبيئة، مع ردة فعل أهل المنطقة القاطنين في الأماكن المفتوحة، ولم يخصص بإفريقيا دون سواها.

بدأت عمليات فتح الشمال الإفريقي في خلافة عثمان بن عفان رضي الله عنه في حدود سنة 27هـ، وكان أول القادة الذين كلفوا بالمهمة عبد الله بن سعد بن أبي سرح رضي الله عنه، وكان معه عدد من صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم.

فكانت الحملة الأولى استطلاعية بإيعاز من والي مصر عمرو بن العاص، وقادها ابن أبي سرح، وسميت بحملة العبادلة سنة 27هـ، وذلك لمشاركة عدد من الصحابة يحملون اسم "عبد الله "، وهم:

عبد الله بن عمر بن الخطاب، عبد الله بن الزبير، عبد الله بن عمرو بن العاص، عبد الله بن مسعود، بالإضافة صحابة آخرين شاركوا في الحملة، كأبي ذر الغفاري، وفضالة بن عبيد الأنصاري وغيرهم.

استمر الفتح حتى بعد تولي ابن أبي سرح لولاية مصر خلفا لعمرو بن العاص بعد عزله، " فأصبح تبعا لذلك، حاكما على ما بقي للمسلمين من فتوحهم في إفريقية قائدا على من يخرج من الجند لإكمال الفتح فيها، وهذا هو الوضع السياسي الأول لإفريقية، إذ اعتبرت جزءا ملحقا بولاية مصر، يحكمها عامل مصر، يجبي خراجها ويقود جندها " (مؤنس، د.ت: 78). فكان ابن أبي سرح يبعث المسلمين إلى إفريقيا فيصيبون من أطرافها ويغنمون، ثم كتب إلى الخليفة يخبره بذلك، وبقرب إفريقيا من حرز المسلمين، واستأذنه في غزوها (بن عبد الحكم، 1464: 34).

لتكون أبرز العلامات التمهيدية لفتح الشمال الإفريقي والبداية الفعلية لتجسيد مشروع الفتح لكامل المنطقة، وإدخال الإسلام إليها، وضمها إلى الدولة الإسلامية بعد استكمال فتحها مع بداية القرن الثاني الهجري.

2. بداية تجسيد العلاقة بين الأمازيغ والفاتحين:

البربر سكان المغرب الأصليون وهم أقدم أمة عرفها التاريخ في الشمال الإفريقي ومن المعقول جدا أن يكون العرب قد أخذوا لفظ (البربر) عن (اللاتينية) (barbar) مع تغيير معناه، إذ كان الأفارقة عادة يطلقونه عادة على الأهلين.

ومما نراه من الاجتهادات –التي تبدوا غير ممنهجة – محاولة تفسير لفظة (بربر) تفسيرا لغويا أو اتخاذ هذا الاسم نسبة لأحد أباءهم البعيدين وهو بر بن قيس عيلان وقد قال بن حزم عن ذلك (وهذا باطل لا شك فيه، وما علم النسابون لقيس ابنا اسمه : بر أصلا ولا كان لحمير طريق إلى بلاد البربر إلا في تكاذب مؤرخي اليمن)... (الصلابي، 2008: ص 11).

ولعل الكلام الذي أشار إليه ابن حزم يقطع كل شك بامتداد الأصول البربرية لشعوب اليمن القديم.

ويمكن القول أن هذه المرحلة كانت طيلة فترات الفتح في فترات السلم والحرب من خلال ما يلي:

1.2 مرحلة تكريس مبادئ الفتح وأهدافه (الدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة):

ظهر حماس الفاتحين المسلمين أثناء مراحل فتحهم لإفريقيا، من خلال حرصهم على تكوين علاقات ودية مع أهل المنطقة بكل شرائحهم العامة منهم وقادة القبائل المنتشرة في المنطقة.

قابل هذا الحرص رغبة الأمازيغ وحماسهم في معرفة ما جاء به الفاتحون، وما يدعون إليه من مبادئ لدينهم الذي يريدون نشره، والإقناع به، ولذلك ستكون الفترة الأولى للفتح – جس نبض–وهي محاولة من الفاتحين نحو تعريف وشرح ما يدعو إليه الإسلام في أوساط البربر، ثم نشره والتوسع في المنطقة.

2.2 حملة عمر ابن العاص على مصر سنة22هـ:

لقد كان من البديهي لأي قائد عسكري بلغ مبلغ عمر ابن العاص رضي الله عنه بعد فراغه من الاستيلاء على القطر المصري وتمام جلاء الروم عنه أن يؤمن ظهور المسلمين من خلال باقي إفريقية، وكان أهل برقة يومها على علاقة وطيدة بمصر حتى أن بعض قبائلها كان معدودا من الأقباط، وكانت الطريق بينهما مطروقة مأنوسة، فلما فرغ عمر من فتح الإسكندرية وجد الطريق إلى الإسكندرية سهلة مطروقة فخشي من إغارة الروم على المسلمين فبعث الطلائع تستطلع له البلاد ثم غزا بنفسه برقة وطرابلس ثم فكان

له الفتح في 22هـ (الجيلالي، 1965: 161) . تجدر الإشارة هنا أن الكثير من القبائل ممن كانت منضوية تحت لواء البيزنطيين لذلك لا يستبعد أن يكونوا ضمن الجيوش التي قاتلت المسلمين.

ذكر عبد الرحمن الجيلالي فيما يخص قبائل البربر فقال عنها أنها أكثر من أن تحصى، وكلهم بادية أهل عصائب وعشائر وكلما هلكت قبيلة عادت الأخرى مكانها وإلى دينها من الخلاف والردة فطال أمر العرب في تمهيد الدولة بوطن إفريقية والمغرب . ويبدوا من خلال هذا الكلام أن هناك تضاربا مع رأي أب القاسم سعد الله الذي يرى في مستهل كتابه "أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر "وتحديدا حين ذكر أن الحرب كانت قائمة بين البيزنطيين والمسلمين واعتبر أن الصدام الأول لم يكن بإفريقية بادئ الأمر إنما في الشام .وهنا يبدوا أن هنالك حلقة مفقودة فحواها في صف من كان ذاك العدد المهول من القبائل التي أتى على ذكرها عبد الرحمن الجيلالي ؟ (الجيلالي، 1965: 162).

3.2. حملة ابن أبي سرح 29-28هـ (دور الحكمة والتآلف)

بعد أن أصبح واليا على مصر منذ 25هـ /646م ما كاد يستتب الأمر لعبد الله ابن أبي سرح حتى فاتح الخليفة عثمان ابن عفان رضي الله تعالى عنه يخبره بقرب الروم من حوز المسلمين مستأذنا إياه في غزو إفريقيا وفي سنة 28هـ وقيل 29هـ أذن له بغز إفريقية في معركة العبادلة المشهورة .وفي هذه المعركة برز دور البربر باعتبارهم ضمن القبائل التي كانت ضمن صفوف جيش الفتح والذي كان مكونا من عشرين ألف جندي ضد "غريغوريوس " (الجيلالي، 1965: 164).

لما صار الجيش إلى عبد الله بن سعد واتصل بقوات الخليفة أخذ عدته وجمع أمره واستخلف على مصر عقبة بن عامر الجهني وبعث أمامه بالطلائع

مع الحملات الأولى لم يكن الفاتحون يستقرون في المنطقة، لذلك لم تكن العلاقة قد تجلت بين الطرفين بعد، إذ كان عبد الله بن سعد بن أبي سرح كلما خرج إلى إفريقيا فاتحا؛ يغزو المدن ويغنم وينصرف إلى مصر، ومن أهم المدن التي وصلوها "جلولاء" " فبعد أن دخلوها غنموا منها وانصرفوا" (معروف عواد و محمود عواد، 2013: 19).

4.2. حملة عقبة ابن نافع الفهري الأولى50هـ (دور السياسة والمهادنة) :

سار عقبة على رأس عشرة آلاف من الجنود باتجاه إفريقيا فأقام به أميرا على ما تم فتحه وغيرا على الثغور تارة أخرى وكان ذلك إبان فترة ولايته سنة 50هـ/670م يذكر عبد الرحمن الجيلالي أن التاريخ يشهد على أن حملة عقبة كانت بمثابة فتح حقيقي (الجيلالي، 1965: 167) تعتبر فترة عقبة بن نافع

الفهري من أهم مراحل الفتح الإسلامي للمنطقة (بن عبد الحكم، 1464: ص 49) حيث تغير نمط الفتح من مجرد دخول المدينة وأخذ الغنائم والرجوع إلى الرباطات واستقرار في المناطق المفتوحة، وسيكون لهذا التغير تأثير إيجابي على ترسيخ الإسلام بين أهل المنطقة.

لقد سعى عقبة بن نافع لتحقيق عدة إنجازات كان أهمها بناء مدينة القيروان، إذ عكس هذا العمل النشاط العمراني للفاتحين، وأبان عن نواياهم في إعمار المنطقة والمكوث بها وتطويرها، وبالإضافة لبناء القيروان فقد بنى عقبة مسجد المدينة، وهو دليل آخر على ذات الغاية للفاتحين، وعلى الجهود التي بذلوها في سبيل نشر مبادئ الدين الإسلامي الذي جاؤوا لأجل نشره، ولن يتحقق ذلك إلا بالاستقرار في المنطقة.

منذ ذلك الحين كانت القيروان مركزا لنشر الدين والعلم، وقبلة لكل من أراد التوسع في علوم الدين إذ أصبحت فيما بعد حاضرة علمية تضاهي في المكانة الحواضر الإسلامية الكبرى كبغداد، والشام، فكانت " أول مركز للثقافة العربية والدين الإسلامي في بلاد المغرب " (كرو، 1989: 14). هو مأثور عن عقبة بن نافع دعاؤه للقيروان بعد استكمال بنائها قائلا: " **اللهم املأها فقها وعلما ... واجعلها عزّا لدينك، وذلا لمن كفر بك**" (ابن عذراى، 2013: ص 20).

كان للفاتح عقبة بن نافع سياسة خاصة به، ومختلفة عن غيره، ولكن لم يستمر ذلك طويلا، فسرعان ما جاء أمر الخليفة بعزله واستبداله بوال آخر، هو أبو المهاجر دينار؛ يمكن أن نعتبر تاريخيا أن عزل عقبة وطريقة العزل التي أحس فيها بالإهانة قدا ألقت بظلالها في المرحلة الثانية من ولاية عقبة بن نافع في شمال إفريقيا وينكل بكل من كانت له صلة بالوالي السابق أبو المهاجر من البربر وغير البربر ....

عمل أبو المهاجر دينار منذ توليه ولاية إفريقية على مهمة استكمال عملية الفتح بعد عقبة، على جملة من الأهداف، في مقدمتها؛ كسب ولاء الأمازيغ والحصول على تقبلهم له، ولأجل ذلك اتبع سياسة التحالف، وفيها أقام حلفا مع القائد الأمازيغي كسيلة قائد قبيلة أوربة، ولم يسبقه فاتح قبله لمثل هذه الخطوة أو هذه السياسة (لقبال، ب. ت: 36).

بعد ظفر أبو المهاجر دينار في غزوته لقبيلة أوربة وزعيمها كسيلة، أظهر هذا الأخير الإسلام، فعفى عنه أبو المهاجر وقربه إليه، وأقره على زعامة القبيلة، بل كما أشرنا فقد دخل معه في تحالف، وكان لهذا السلوك آثار حميدة، فأصبح الأمازيغ يرون الجانب الإيجابي من قدوم المسلمين، فبدأ التفاهم والتقارب

بين الطرفين، ما جعل الأمازيغ يلمسون رغبة المسلمين في كسب ولائهم، وتأليف قلوبهم للإسلام، وبذلك " حسن إسلام كسيلة ومن تزعمهم من البربر".

من الآثار الحميدة لسياسة القائد الفاتح أبو المهاجر دينار؛ أن أسلمت قبيلة أوربة، وبفضل هذا التحالف ساندت القبيلة المسلمين في معاركهم لنشر الإسلام في المنطقة، وساعدهم الأمازيغ في التوسع والانتشار بين الأهالي، وتعريفهم بالدين الإسلامي، وما يدعون إليه من مبادئ في مختلف مناحي الحياة.

بهذا الصدد نورد رواية المالكي عن سلوك أبي المهاجر دينار، وما ميزها من تحالف، وصلح ثم ما تم له من الفتوح في مختلف المناطق والقبائل؛ يقول فيها: " ثم إن أبا المهاجر دينار صالح بربر إفريقيا وفيهم كسيلة الأوربي، وأحسن إليه، وصالح عجم إفريقيا، وخرج بجيوشه نحو المغرب ففتح كل ما مر عليه حتى انتهى إلى العيون المعروفة بأبي المهاجر نحو تلمسان " (لقبال، ب. ت: 38). وكل هذا يوضح لنا دور الأمازيغ في عملية الفتح الإسلامي، أثناء مراحله الأولى، " حين تفتحت نفوس أبنائها وعقولهم في زمن مبكر للإسلام " (كرو، 1989: 14)، وهو ما يعكس تلك العلاقة التي نشأت بين الطرفين خلال عملية الفتح، وكانت علاقة حسنة سادها التفاهم والتحالف والتصالح والتعاون.

يشير الدكتور أبو القاسم سعد الله في مستهل كتابه الموسوم بـ: "أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر" بقوله " أن الروايات والأبحاث الجديدة تؤكد أن البربر ليسوا جنسا أو أمة خاصة وأن العبارة في حد ذاتها لا تعني شرفا ولا حضارة بل تعني الضعة ...! والمرتبة الدنيا بالقياس إلى الرومان الذين كانوا يعتبرون أنفسهم متميزين. وعلى هذا النحو فإن عبارة "بربر" لا تعني سكان شمال إفريقيا وحسب بل تعني كل الشعوب ذات الدرجة الثانية في الحضارة وأنها تعني الوحشية في التصرف والسلوك والعجمة في اللسان والمنطق " (البكوش، 1983: 33)؛ وهنا يمكن طرح الكثير من التساؤلات عن سبب الإبقاء على تلك التسمية على معانيها السلبية والدونية التي كان ينبغي على العرب الفاتحين بمخالفة الرومان في معاملتهم للأمازيغ ولا نعتقد أن عبارة "البربر" قد تأتي بمعنى الكلام غير المفهوم لأن ذلك عند العرب رديف للعجمة...

لنستنتج من هذه المعطيات أن الأمازيغ أعجبوا بمبادئ الإسلام، التي تدعو في مجملها إلى التسامح والتآلف والتعاون والحرية، وكذلك نجاح جهود الفاتحين الأول لترسيخ هذه المبادئ، وتجسيدها في أرض الواقع، وهو ما دل عليه بناء القيروان ومسجدها، وكذلك نشوء الحلف بين الطرفين.

3. مرحلة الانقلاب وبروز النزعة الانتقامية في الولاية الثانية لعقبة ابن نافع الفهري:

كان عقبة بن نافع الفهري قائد الفتح المسؤول في الشمال الإفريقي إلى غاية عزله واستقدام أبي المهاجر دينار مكانه من طرف الخليفة " فأساء عزله "، وقد كتب عقبة شكوى بذلك للخليفة، وبين له ما تعرض له من سوء عزل (أبو القاسم، 2009: 6-7) ،كما أوضح عن رفضه لما حدث له فقال: " فتحت البلاد ودانت لي وبنيت المنازل واتخذت للجماعة منزلا، وسكنت الناس، ثم أرسلت عبد الأنصار – أبو المهاجر دينار – فأساء عزلي... " (ابن عبد الحكم، ب.ت: 56)؛ وربما كان عقبة يمني النفس في الإبقاء عليه على إفريقيا ولم يكن ينتظر قرار العزل من الخليفة. ولعل الأمر مرتبط بطموحه لمواصلة الفتح .

تشير المصادر إلى أن عقبة كان خلال المرحلة الأولى من توليه قيادة الفتح، قد أحسن سياسته، وامتلك بعد النظر لكل خطواته، وكان يفكر ويعمل بما يخدم مستقبل الإسلام في المنطقة، فكان بحق كما وصف " خير وال وخير أمير " ، كما وكان قد قرب الناس منه بمآثره إذ كان " مستجاب الدعاء (ابن عذارى،2013: 46)."

فلما قدم إفريقيا في المرحلة الثانية، أي عودته بعد العزل، قبض على أبي المهاجر دينار وأوثقه بالحديد، وصادر ما معه من الأموال؛ وجملتها مائة ألف دينار، وأمر بتخريب مدينته التي بناها ورد الناس إلى القيروان (ابن عذارى، 2013: 46)؛ ولعل ما أثار حفيظة عقبة بسبب عزله و توقف طموحاته في مواصلة الفتح سببا له حالة من الروح الانتقامية تجاه كل ماله صلة بالوالي الجديد.

فبهذا الأسلوب وهذه المشهد تصور لنا المصادر عودة عقبة بن نافع لولاية إفريقيا مرة ثانية وقيادته لعملية الفتح الإسلامي للمنطقة، ورغم ما في هذا التصرف من إشارات واضحة حول سلوك عقبة الانتقامية، إلا أن فيه أيضا دلالة على الرغبة القوية التي عاد بها لتولي أمور إفريقيا، واسترجاع منصبه، ثم استكمال مخططاته في نشر الإسلام وفتح المنطقة، كما خطط له منذ حملته الأولى.

كان مما أولى له عقبة أهمية في هذه المرحلة، هي فتح المغرب الأوسط، ودعوة أهله إلى الإسلام، ومحاربة الرافضين له سواء من الأمازيغ أو غيرهم، لينطق متجها نحو المغرب الأقصى، واضعا نصب عينيه الوصول إلى أقصى نقطة غربا، وخلال ذلك مر بقبيلة أوربة، التي كانت أسلمت مع زعيمها كسيلة، وكان عقبة كلما قدم مدينة؛ استخلف عليها واليا حتى لا يضيع جهده المبذول في فتحها، وتخرج عن سيطرته، فاستخلف على طرابلس عمر بن علي وزهير بن قيس البلوي (ابن عبد الحكم، ب.ت: 51).

لقد أهمل عقبة بن نافع ما اهتم به أبو المهاجر، من السعي إلى كسب ود ودعم الأمازيغ وقادتهم، بل كان مدفوعا بعاطفة الانتقام في بعض سلوكه، ولم يشمل انتقام عقبة أبي المهاجر فقط، بل كذلك القائد الأمازيغي وزعيم قبيلة أوربة كسيلة، إذ تشير بعض المصادر إلى أن عقبة تعمد إهانته أمام جنده، ورغم تنبيه أبي المهاجر له عن لذلك الخطأ، وهو تحت وطأة انتقام عقبة منه دون جدوى.

فحينما دفع عقبة جحافل جنوده إلى القيروان تخلف عنهم نحو ثلاثمائة نفر من خاصيته وأتباعه ومعهم أبو المهاجر دينار وقد كانت نصيحة أبي المهاجر له بأن يداريه وألا يهينه وإلا فليعاجله(يحاربه) قبل اجتماع القوم عليه وهو سيدهم (يقصد كسيلة) (محمد إدريس، 1987: 53).

لا شك أن مثل هذه الهفوات والأخطاء التي أخذت على عقبة سيكون لها تأثير تغير تلك العلاقة بين الطرفين، والتي ساهم في إيجادها كلا الفاتحين عقبة وأبو المهاجر، حيث أن بعض الأمازيغ خاصة المتضررين من كثرة المعارك والقتل فيهم، وتوالي الهزائم عليهم، سينتج عنها آثار لن تعجب عقبة، والتي ستكون دافعا لتشكل مقاومة مضادة له، تؤدي فيما بعد إلى مقتله في منطقة "تهودة"، لتكون حملة عقبة الثانية " مغامرة طويلة قليلة الأثر، وخيمة العاقبة"(مؤنس، ب.ت: 133)؛ ليشمله بدوره لظى الانتقام من قبل كسيلة .

تمكن كسيلة من الفرار بعد مقتل عقبة؛ ومعه جموع من الأمازيغ تزعمهم واتجه نحو طرابلس والقيروان، حيث كان عقبة قد استخلف عليها عمر بن علي، وزهير بن قيس البلوي، وكان هدف كسيلة الاستلاء عليها، لكن القائدين تصدى له وقاتلاه قتالا شديدا، هزم فيه كسيلة وجيشه، وعاد القائدين إلى مصر (ابن عبد الحكم، ب.ت: 61).

يعتبر عقبة بن نافع الفهري أحد كبار القادة الذين أدخلوا الإسلام إلى منطقة الشمال الإفريقي، وساهموا في استقراره، ونشره، وكانت له دراية بأساليب التعامل مع الأمازيغ، إلا سلوكه أثناء حملته الثانية وما أُخذ عليه من أخطاء منها سعيه للانتقام من أبي المهاجر، واستهانته في الحرص على كسب جانب البربر، كذلك اندفاعه الكبير في التوسع غربا، ونيته إبلاغ رسالة الإسلام إلى أقصى البلاد، فلما بلغ البحر المحيط، كما تذكر المصادر: أدخل فرسه، فأمر جنوده برفع الأيدي للسماء والدعاء معه، فقال: " اللهم إني لم أخرج بطرا ولا أشرا وإنك لتعلم أنما نطلب السبب الذي طلب عبدك ذو القرنين وهو أن تعبد ولا يشرك بك شيئا، اللهم إنا معاندون لدين الكفر ومدافعون عن دين الإسلام فكن لنا ولا تكن علينا يا ذا الجلال والإكرام، اللهم أشهدك أن لا مجاز ولو وجدت مجازا لجزت" (ابن عبد الحكم، ب.ت: 55).

كما كانت له آثار ومناقب ذكرت لنا في المصادر، منها ما كان معه عند وصوله موضع القيروان وكان واديا كثير الشجر تأوي إليه الوحوش والسباع والهوام فنادى بأعلى صوته يا أهل الوادي ارتحلوا رحمكم الله فإنا نازلون ثلاثة أيام فخرج ما فيها، وجعل منها مركزا لفتوحاته (ابن عبد الحكم، ب.ت: 60)، ولا شك أن هذه المناقب أسرت أهل المنطقة وحفزتهم للتعرف على ما يدعو إليه الفاتحون، لتستمر عملية الفتح بعد عقبة مع زهير بن قيس البلوي، ثم حسان بن النعمان، لتنتهي معه مرحلة الفتح المنظم، ويدخل المغرب الإسلامي مرحلة جديدة هي مرحلة حكم الولاة.

لقد ساهم النشاط الديني والثقافي الكبير الذي بذله العرب من أجل إسلام البربر و إفهامهم مبادئ الدين الحنيف وروحه الحقيقية الداعية إلى الأخوة والمساواة والسلام إلى تعايشهم مع الأمازيغ في بوتقة الإسلام– كما يشير محمد كرو – (كرو، 1989: 16)، وهذا الأمر نتج عنه تشكل علاقة قوية بين الطرفين ستساهم هذه العلاقة في تسيير البلاد خلال المراحل التالية مشاركة.

لم تكن هناك علاقات بارزة بين الأمازيغ ومن حكمهم قبل المسلمين، وهذا الأمر بالغ الأهمية بالنسبة لعنصر جديد يتطلع ويطمح لدخول المنطقة وفتحها ونشر دعوتهم ودينهم فيها، ويظهر ذلك من خلال حملات الاستطلاع لمعرفة المنطقة وأهلها، وما أظهروه من العزم نحو ضمها إلى أراضي الدولة الإسلامية منذ العهد الأول للإسلام مع صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم.

إن علاقة المسلمين بأهالي إفريقية التي فتحوها كان يميزها في الغالب التعامل بأخلاق الإسلام في كل الجوانب من العدل والتعاون وانتشار الألفة والمحبة، وهذه كانت غاية الفتح بصفة عامة – فتح القلوب قبل فتح الأراضي – وقد كان لسلوك الفاتحين وأخلاقهم أشد الأثر في اعتناق الأمازيغ للإسلام وحبهم ودعمهم لهم واقتناعهم بالمبادئ التي جاءوا بها ودعوا لها، ليشاركوا فيما بعد في الحفاظ عليها وحمايتها والدفاع عنها، وكذلك المشاركة في نشرها أثناء فتحهم للأندلس.

هذه العلاقة التي تعرفنا على أهم ملامحها وتجلياتها من صلح وتحالف وحرص على كسب الود، إلى الانتقام والحرب، وأظهرنا كيف ساهم القادة من الطرفين في نشوئها وفي غيابها.

من خلال هذه الدراسة لمسنا جانبا من اهتمام الفاتحين بالاستقرار وإعمار المنطقة، لتمثل هذه المرحلة كاملة مرحلة تمهيد أركان الإسلام، وهي مرحلة تقديمية للمرحلة التالية والتي بدورها ستشهد تجسيدا فعليا للعلاقة التي كرستها مرحلة الفتح المنظم للشمال الإفريقي.

يبدوا أن العديد من قادة الفتح كانوا شديدي المراس مع الحرب وعلومها والأكثر روعة من ذلك الجوانب النفسية التي كان كفيلا بتجسيدها لنا أبو المهاجر دينار حينما قرب إليه القائد الأمازيغي كسيلة ليرسم لنا مشهدا حضاريا راقيا في تفاعل الشعوب والأمم وتجسيد قوله تعالى :"إنا جعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم "

لاتزال بعض الحلقات مفقودة سيما بعد عودة عقبة على رأس إفريقية والسبب الحقيقي الذي أدى به إلى ردة فعل انتقامية كلفت الطرفين – من العرب والأمازيغ– أعداد كبيرة من الأنفس وأودت بعقبة في حد ذاته وكادت تودي بمشروع تعب لأجل بنائه الطرفان من البربر والعرب .

لم تكن هناك علاقات بارزة بين الأمازيغ ومن حكمهم قبل المسلمين، وهذا الأمر بالغ الأهمية بالنسبة لعنصر جديد يتطلع ويطمح لدخول المنطقة وفتحها ونشر دعوتهم ودينهم فيها، ويظهر ذلك من خلال حملات الاستطلاع لمعرفة المنطقة وأهلها، وما أظهروه من العزم نحو ضمها إلى أراضي الدولة الإسلامية منذ العهد الأول للإسلام مع صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم.

إن علاقة المسلمين بأهالي المناطق التي يفتحونها يميزها في الغالب التعامل بأخلاق الإسلام في كل الجوانب من العدل والتعاون وانتشار الألفة والمحبة، وهذه كانت غاية الفتح بصفة عامة — فتح القلوب قبل فتح الأراضي — وقد كان لسلوك الفاتحين وأخلاقهم أشد الأثر في اعتناق الأمازيغ للإسلام وحبهم ودعمهم لهم واقتناعهم بالمبادئ التي جاءوا بها ودعوا لها، ليشاركوا فيما بعد في الحفاظ عليها وحمايتها والدفاع عنها، وكذلك المشاركة في نشرها.

هذه العلاقة التي تعرفنا على أهم ملامحها وتجلياتها من صلح وتحالف وحرص على كسب الود، إلى الانتقام والحرب، وأظهرنا كيف ساهم القادة من الطرفين في نشوئها وفي غيابها.

من خلال هذه الدراسة لمسنا جانبا من اهتمام الفاتحين بالاستقرار وإعمار المنطقة، لتمثل هذه المرحلة كاملة مرحلة تمهيد أركان الإسلام، وهي مرحلة تقديمية للمرحلة التالية والتي بدورها ستشهد تجسيدا فعليا للعلاقة التي كرستها مرحلة الفتح المنظم للشمال الإفريقي.

يبدوا أن العديد من قادة الفتح كانوا شديدي المراس مع الحرب وعلومها والأكثر روعة من ذلك الجوانب النفسية التي كان كفيلا بتجسيدها لنا أبو المهاجر دينار حينما قرب إليه القائد الأمازيغي كسيلة ليرسم لنا مشهدا حضاريا راقيا في تفاعل الشعوب والأمم وتجسيد قوله تعالى :"إنا جعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم "

لاتزال بعض الحلقات مفقودة سيما بعد عودة عقبة على رأس إفريقية والسبب الحقيقي الذي أدى به إلى ردة فعل انتقامية كلفت الطرفين – من العرب والأمازيغ– أعداد كبيرة من الأنفس وأودت بعقبة بحد ذاته.

من الآثار الحميدة لسياسة القائد الفاتح أبو المهاجر دينار؛ أن أسلمت قبيلة أوربة، وبفضل هذا التحالف ساندت القبيلة المسلمين في معاركهم لنشر الإسلام في المنطقة، وساعدهم الأمازيغ في التوسع والانتشار بين الأهالي، وتعريفهم بالدين الإسلامي، وما يدعون إليه من مبادئ في مختلف مناحي الحياة. عوضا عن روح الانتقام التي كلفت عقبة حياته وكادت تكلف المشروع الإسلامي بإفريقية الكثير.

بيبليوغرافيا

المراجع (كتب و مقالات)

1. ابن عذارى المراكشي . (2013). البيان المغرب في اختصار أخبار أهل الأندلس و المغرب. 1. (محمود بشار عواد، و معروف بشار عواد، المحررون) تونس، تونس: دار الغرب الإسلامي.
2. أبو القاسم سعد الله . (2009). أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر (المجلد 1). الجزائر: دار المعرفة –دار الرائد.
3. المالكي . (1983). رياض النفوس في طبقات علماء القيروان وإفريقية وزهادهم ونساكهم وسير من أخبارهم وفضائلهم وأوصافهم، (المجلد 1). (بشير البكوش ، المحرر) بيروت، لبنان: دار المعرفة–دار الرائد.
4. حسين مؤنس. (د.ت). فتح العرب للمغرب. الإسكندرية، مصر: مكتبة الثقافة الدينية.
5. حمدان بن عثمان خوجة . (2005). المرآة. (محمد العربي الزبيري، المترجمون) الجزائر: منشورات ANEP.
6. خوجة، حمدان بن عثمان . (بلا تاريخ). المرآة.
7. عبد الرحمن ابن عبد الحكم. (1964). فتوح أفريقيا و الأندلس. (عبد الله أنيس الطباع، المحرر) بيروت، لبنان: مكتبة المدرسة –دار الكتاب اللبناني للطباعة والنشر.
8. عبد الرحمن محمد الجيلالي. (1965). تاريخ الجزائر العام. (1). بيروت–الجزائر، لبنان– الجزائر : منشورات دار مكتبة الحياة –مكتبة الشركة الجزائرية.
9. محمد كرو . (1989). عصر القيروان. (ط2). دمشق، سوريا: دار طلاس للدراسات والترجمة.
10. مسعود الجزائري مجاهد. (1971). تاريخ الجزائر. الجزائر: المكتبة الوطنية.
11. موسى لقبال . (دت). الغرب الإسلامي (الإصدار 2). الجزائر، الجزائر : الشركة الوطنية للنشر.
12. يحي بوعزيز. (2009). الموجز في تاريخ الجزائر (القديم والوسيط). (1). ديوان المطبوعات الجامعية.
13. علي محمد الصلابي : الفتح الإسلامي في الشمال الإفريقي، ط1، مؤسسة اقرأ للنشر والتوزيع، سنة 2008.

14.عبد العزيز الثعالبي : تاريخ شمال إفريقيا (من الفتح الإسلامي إلى نهاية الدولة الأغلبية)، تحقيق أحمد بن ميلاد– محمد إدريس، دار الغرب الإسلامي للنشر والتوزيع ،ط1،سنة1987.